الامة التي تتكلم بها ولو قدم عهده وعفيت آثاره . وهي اذا كانت قديمة محفوظة كاللغة العربية وجد الباحث في موادها ما يعجز عن وجودهِ في تواريخ الامة وعاداتها . وشواهد ذلك كثيرة كما جاء في مقالات صديقنا الفاضل جرجي افندي يني الطرابلسي عن العرب قبل التاريخ . واذا طالعنا كتب اللغة رأينا فيها مادة قَحَفَ بمعنى قطع قحف الرأس او كسرهُ وبمعنى شرب ما في الاناء او استخرج ما فيهِ والقاحف مستخرج ما في الاناء . والقحفُ اناء من خشب مثل قحف الراس . ومناد ذلك ان العرب كانوا يقطعون قحف الراس وكانوا يصنعون اناء من خشب يشبه القحف بصورتهِ قحفًا ايضًا ومنهُ "اليومَ قِحاف وغدًا بِقاف" اي اليوم شرب بالقحاف . ولا يبعد انهم كانوا يستعملون قحف الراس نفسهُ قدحًا يشربون بهِ ثم صاروا يصنعون القحاف من الخشب . ولعلَّ ابا الطيب المتنبي اشار الى ذلك حيث قال

كأنَّ خيولنا كانت قديمًا تسقّى في قحوفهمِ الحليبا

فمرَّت غير نافرة عليهم تدوس بنا الجماجم والتريبا

الاَّ ان ذلك لا ينافي ما اثبتهُ العلماء المشار اليهم آنفًا من ان بعض الشعوب كانوا يتخذون رؤوس الاحياء لغاية طبيَّة او دينيَّة

ذَوق العجماوات وتدينُها

قال بعضهم ان اعظم فارق بين الانسان والعجماوات هو قلة ادراك العجماوات لما في المصنوعات الجميلة من الجمال وكأنَّ الاستاذ هكسلي يذهب هذا المذهب ايضًا كما يستنتج من بعض اقوالهِ ولكن الفيلسوف هربرت الجرماني وهو من اكبر فلاسفة العصر خالف ذلك وقال "انني لو سئلتُ عما اذا كان لنوع الانسان ميزٌ عامٌ غير طبيعي لقلتُ انني لا اعلم بوجود هذا الميز ولا احسبهُ موجودًا" . ثم ذكر الميزات الطبيعيَّة التي يمتاز بها نوع الانسان كالنطق واستعمال اليدين وطول مدَّة الطفولية وقال ان مزاياهُ العقليَّة تتوقف على هذه الميزات الطبيعيَّة

وظاهر الامر ان الانسان دون كثير من طوائف الحيوان في اكثر قواهُ الجسديَّة فهو دون الوحوش في قوتهِ البدنيَّة ودون ذوات الثدي في نمو اسنانهِ وارتقائها . وحاسة الشم فيهِ اضعف منها في الكلب وحاسة البصر اضعف منها في النسر وعنبهُ اضعف من عنب الغنم وقدمهُ اضعف من قدم الخيل

وقد ذهب البعض الى أن ضعف الانسان في طفولتهِ يميزهُ عن كل انواع العجماوات

ثم ظهر ان من هذه العجماوات ما تكون اطفالة ضعيفة كاطفال الانسان حتّى ان الانواع المرتقية منها كبعض القرود تبقى اطفالها اشهرًا غير قادرة على المشي والسعي في طلب رزقها . فقد اصطاد المستر ولس العالم الطبيعي قردًا صغيرًا من نوع الأورانغ اوتانغ بلغ من العمر ثلاثة اشهر قبلما استطاع المشي . و بعض القرود المنحطة تبلغ اشدها في السنة الثالثة او الرابعة من العمر ولكن القرود المرتقية التي في اشبه بالانسان من غيرها لا تبلغ اشدها قبل السنة الرابعة عشرة او الخامسة عشرة من عمرها . ولو عاشرت هذه القرود الانسان الوفًا من السنين لارتقت اكثر من ارتقائها الحالي والشاهد على ذلك ان القرود التي ربّاها الناس بضعة اشهر تكاد تعمل عمل الانسان فتخدم على المائدة كما تخدم الخَوَل وتفتح الباب اذا قرع جرسهُ وتسير بالزائرين الى غرفة الاستقبال وتسقي الماء وتضرم النار وتغسل الصحاف وتعمل اكثر الاعمال التي يعملها الخادم في البيت حتّى قال بَرَهْم الطبيعي الشهير "ان الانسان لا يستطيع ان يعاملها معاملة العجماوات بل يكرمها من تلقاء نفسهِ و يعاملها كما يعامل ابناء نوعهِ لانها تبدي من اعمال الانسان واوصافهِ ما يجعلنا ننسى حيوانيتها فان جسمها جسم وحش ولكن ادراكها كادراك انسان من عامة الناس . ولا يصحُّ ان ننسب اعمالها الى التقليد المجرّد عن التعقل لانها تقلّد الانسان عن فهم وادراك كما يقلد الولد اباهُ"

ولا مشاحة في ان المدة التي تنموفيها قوى القرود قصيرة جدًّا ثم تتوقف قواها عن الارتقاء وهذا يكاد يكون شان كثير من القبائل المتوحشة فان قواهم العقليَّة تتوقف عن النمو باكرًا بالنسبة الى قوى الشعب الفرنساوي . وسرعة بلوغ الانسان تتوقف على صنفهِ وعلى عمرانهِ فالشعوب التي بلغت الآن ارقى درجات العمران بتاخر بلوغ افرادها ولكن عقولهم تبقى قابلة للنمو سنين كثيرة حتّى لا يتعذر على البعض منهم ان يتعلموا لغات جديدة وعلومًا عويصة وهم في الستين والسبعين من عمرهم بخلاف غيرهم من الامم التي يقف افرادها عن الارتقاء العقلي قبل السنة الخمسين

وقد قيل ان يد الانسان هي الواسطة الكبرى في انماء ذوقهِ وتحسينهِ لان الاعمال الجميلة من صنع اليد الاَّ اننا نرى بعض العجماوات يسرُّ برؤية الالوان الجميلة وسماع الاصوات الرخيمة وان ذوقها من هذا القبيل يمكن مقابلتهُ بذوق المتوحشين من الناس وقد كان لهُ شأن كبير في اختلاف صنوفها وانواعها كما هو مشاهد في الطيور فانها تنافس بتزويق الوانها و بديع الحانها واجمل لونها وارخمها لحنًا يتغلب على غيرهِ في سوق الحب ومبدان الغرام

ولا شبهة في ان الطيور تسرُّ ببرقشة الوانها وكلما زادت الوانها بهاء زادت هي عجبًا

وكبرًا كما ترى في الديك والطاووس وطير الجنة . قال المستر غُلد في كتابه عن طيور استراليا ان طائرًا منها يبني قبة امام عشه من الصيدان والاغصان الدقيقة وينجمها نجمًا ثم يزينها بالريش الملوّن من اذناب الطيور المزوقة ورقابها والاصداف الملوّنة والخرق وما اشبه من المواد ذات الالوان البديعة وقد يبسط امامها ما يملأ سلة كبيرة من هذه النحف ويمشي بينها متجبترًا يميس عجبًا ودلالاً . وكثيرًا ما يجلب هذه المواد من اماكن بعيدة جدًّا ولا فائدة له منها ولا غرض له بها سوى المباهاة وحب الجمال . ولا يمكن تعليل بنائه لهذه القبة بغير ذلك لانها ليست عشه الذي يحضن فيه بيضه بل هي بمثابة غرفة الاستقبال التي يستقبل بها اصدقاءه ويقيم فيها اوقات السرور والطرب

ولتغريد الطيور المقام الاول في تحبيب ذكورها باناثها او ما يعبر عنه العلماء بالانتخاب النوعي . وبعض الطيور يتعلم تغريد طيور اخرى من غير نوعه بل قد يتعلّم بعض الالحان من الآلات الموسيقية مثال ذلك طائر الكنار فانه يتعلم الحانًا كثيرة من البيانو وغيره من آلات الطرب

وانواع كثيرة من القرود تجتمع في حراجها وتعزف عزفًا موسيقيًا تبتهج به اشدّ الابتهاج . والكلاب تميز الاصوات الموسيقية وتبتهج ببعضها وتستاء من البعض الآخر

والحشرات ترى الالوان وتفضّل بعضها على بعض . وعلى ذلك يتوقف تلقيح النبات بواسطتها فانها مبدأ الذوق ومحبة الجمال . واما الاشجار التي تلقح بواسطة الهواء فليس لازهارها الوان جميلة كالتي تلقح بواسطة الحشرات اي ان الطبيعة تكلّ زواج بناتها الشنيعات الى الهواء واما الجميلات فتعدّ لمن موكبًا بديعًا من كل ذات جناح

وقد انكر البعض قوة تمييز الالوان على الحشرات بل على بعض الناس ايضًا . وزعم ان الاشوريين القدماء لم يكونوا يميزون بين اللون الاخضر والازرق والاصفر . ولكنّ قطع الاجر التي وجدت في آثارهم مصبغة بهذه الالوان تدلّ دلالةً واضحة على انهم كانوا يفرقون بينها . ومن هذا القبيل ما قيل من ان العرب لم يكونوا يميزون بين الاخضر والازرق بدليل تسميتهم السماء بالقبة الخضراء فان لون السماء لا يندر ان يكون اخضر او ضاربًا الى الخضرة

هذا من قبيل الذوق اما التدين فاثباته للحيوان الاعجم اصعب من اثبات الذوق له ولكن بعض العلماء الاعلام الذين يوثق بهم ويعتمد على اقوالهم مثل ده كاترفاج وكمت وداروين وسبنسر ورومانس متفق على وجود قوّة التدين في الحيوان الاعجم . قال ده كاترفاج "ان الحيوانات الاهلية متدينة لانها تطيع الذين يقابلونها بالسوط او بالسكر" اي انها تخضع

خوفًا من العقاب او طمعًا بالثواب وتطبع الانسان الذي هو ارقى منها وتترضاهُ وتتزلف اليهِ والكلب منها يتمرَّغ بين قدميهِ خوفًا من عقابهِ او طمعًا بثوابهِ . وقال ايضًا " لا فرق بين الزنجي الذي يعبد احد الصواري و بين الكلب الذي يترامى على قدمي صاحبهِ يطلب العفو عن ذنب اقترفهُ . . . والحيوان الاهلي يلوذ بالانسان كما يلوذ الانسان بمعبودهِ "

والمتوحش ينظر الى المتمدن نظرهُ الى معبودهِ و ينظر الى رئيسهِ هذا النظر ايضًا . وما لنا ولابعاد الشواهد فان اسلافنا كلهم من مصريين ورومانيين واشور يين الَّهوا ملوكهم وهم في اوج مجدهم ومنتهى عمرانهم ونحن لم نزل حتَّى يومنا هذا نجثو على ركبنا امام ملوكنا ونخاطبهم بعبارات التبجيل والتمجيد على اسلوب يقرب من اسلوب اسلافنا في عبادة ملوكهم

وقال الشهير داروين ان العبادة الدينيَّة فعل مركب من المحبة والخضوع التام لكائن عظيم والشعور بالاحتياج اليهِ والخوف منهُ والرهبة والشكر والرجاء . فلا يستطيع المخلوق ذلك الاَّ اذا كان قد ارتقى عقلاً وادبًا ارتقاء كافيًا ومع ذلك نرى في محبة الكلب لصاحبهِ وخضوعهِ التام لهُ ورهبتهِ منهُ ما يقرب من العبادة

وذكر الفيلسوف هربرت سبنسر ما يدلُّ على وجود اصل العبادة في العجماوات قال ان كلبًا كبيرًا أُعطي عصًا ليلعب بها فاتفق انهُ قبض عليها بفمهِ من احد طرفيها فوقع الطرف الآخر بثقلهِ وارتفع الطرف الذي في فمهِ وضغط على حلقهِ ضغطًا شديدًا فاذاهُ فهرَّ ورمى العصا من فمهِ وابتعد عنها مذعورًا ولم يجسر على الدنو منها بعد ذلك الاَّ بالحذر الشديد . قال سبنسر والامر ظاهر ان هذا الكلب لم يخف من العصا قبلاً لانهُ لم يرَ فيها شيئًا غير ما الفهُ من امرها فلما رأى منها شيئًا لم يألفهُ وهو ايلامها حلقهُ حسب ان لها مقدرة على الالم فخاف منها . وهذا شان الانسان وهو في حال الفطرة فانهُ فلما كان يعلم من امر الجمادات وعلل الافعال الطبيعيَّة اكثر مما يعلم الكلب من امرها فلما رأى منها افعالاً لم يعهدها فيها خاف منها وحسب انها قادرة على العمل ولكنها لا تعمل الاَّ حينما تشاء فتفاجئهُ بالاذى مفاجأةً على غير انتظار "

وفعل الكلب هذا شبيه بفعل الزنجي الذي رأى بندقيَّة تطلق النار فخافها وعبدها و بفعل اكثر المتوحشين الذين يخافون و يعبدون كل ما يتوهمون ان فيهِ روحًا او انهُ قادر على نفعهم وضرِّهم . و يزيد ترفعهم عن هذهِ العبادة بزيادة عمرانهم وارتقائهم عقلاً وادبًا

وذكر الاستاذ رومانس انهُ كان عندهُ كلب نبيه جدًّا وكان معتادًا ان يلعب بالمظام يرميها من مكان الى آخر و يلتقطها ثم يرميها و يعلي نفسهُ على هذه الصورة . قال ولما رأيت

منهُ ذلك ربطت عظمًا من تلك العظام بخيط دقيق جدًا حتّى اذا رمى الكلب بالعظم الى مكان بعيد واسرع اليهِ ليلتقطهُ مسكت الخيط من طرفهِ وجررت العظم اليّ قليلاً قليلاً فلما رأى العظم يتحرّك من نفسهِ وقف مبهوتًا لانهُ كان يحسب العظم جامدًا لاحراك بهِ فاذا هو يتحرّك كالاحياء . ثم جعل يدنو منهُ رويدًا رويدًا ويثبت انا اجرّهُ امامهُ فلما تأكد ان العظم سائرٌ امامهُ من تلقاء نفسهِ لامن رميهِ لهُ اولاً تحوّلت دهشتهُ الى خوف ورهب واختفى بين اثاث البيت وجعل يراقب العظم عن بعد وهو يرتجف خوفًا" اي ان هذا الكلب الصغير راقب فحكم فتصوّر فخاف فارتعد والخلاصة انهُ ظهرت فيهِ جراثيم الرهبة والتعبُّد

وبعض العجماوات يخاف من الظلمة كما يخاف منها الاولاد الصغار ويخاف من البرق والرعد كما يخاف منها بعض الناس . وقد ثبت بالامتحان ان الخيل التي تخاف من الرعد لا تعود تخاف منهُ اذا أُتي بها الى قرب المدافع وشاهدتها وهي تطلق كأنها ترى حينئذٍ سبب الصوت فتظن سبب صوت الرعد مثل سبب صوت المدافع وكأنها تحسب انهُ متى ظهر السبب بطل العجب . ومن قبيل ذلك ما ذكرهُ الاستاذ رومانس وهو ان كلبًا سمع عدولاً تترّع على الارض فيكون لتترّعهِ صوت كهزيم الرعد فخاف وارتعدت فرائصهُ ثم دخل الغرفة التي كانت العدول تترّع فيها فلما رآها لم يعد يخاف من صوتها

ويزعم البعض ان العجماوات ترى الارواح والحوادث المقبلة قبل حدوثها ولهم ادلة وشواهد كثيرة على ذلك ولكننا لا نراها قريبة الصحة كما اننا لا نحسب ان رهبة العجماوات وخوفها من العقاب ورغبتها في الثواب يمكن ان يقابل بالشعور الديني الذي في الانسان . ومذهب اكثر رجال الدين من الطوائف المسيحيّة على ان الشعور الديني الذي فينا هو امرٌ خاصٌّ بنوع الانسان لا يشاركهُ الحيوان فيهِ . وانهُ قد تمازجهُ الرهبة والرغبة كما تكتسي الجواهر بالتراب فتلتبس بالحصى ولكن ذلك لا يخرجها عن جوهرها ولا يجعل العرض جوهرًا . الاّ ان اكثر الاديان الاخرى يشرك العجماوات في الدين ويثبت انها تخشى الله وتعبدهُ كما يخشاهُ الانسان ويعبدهُ . وهنا يقف العلم الطبيعي لانهُ لا يستطيع ان يثبت هذا الامر اثباتًا خاليًا من كل ريب ولا ان ينقضهُ نقضًا تامًا

ولولا الاختلاف بين العلماء في اصل الانواع لسهُل على كل احد نسبة الذوق والتديُّن الى العجماوات ولكن العلماء الطبيعيين الذين يثبتونها للعجماوات يعتذرون ذلك دليلاً على ثبوت مذهب النشوء فيعارضهم الذين يقولون بالخلق المستقل وينفونها عن العجماوات ويعللون ما يبدو منها بعلل اخرى